IRCICA

مجلة علمية محكمة تعنى بالتاريخ والحضارة الإسلامية

المجلد I ◉ العدد 2 ◉ خريف 2013

مجلة إرسيكا

المجلد I , العدد 2
خريف 2013
ISSN 2148-2772

منظمة التعاون الإسلامي
مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية

إرسيكا

رئيس التحرير

د. خالد أرن
مدير عام إرسيكا

تحرير

أ. د. خُرّم قادر، المدير السابق لـ(NIHCR) باكستان
أ. د. أيمن فؤاد سيد، جامعة الأزهر
د. صادق أوناي، إرسيكا
د. جنكيز طومار، إرسيكا

هيئة التحرير

الرئيس: د. خالد أرن مدير عام مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية

أ. د. آلب أرسلان آجيق كنج جامعة يلديز التقنية

أ. د. أيمن فؤاد سيد جامعة الأزهر

د. جنكيز طومار إرسيكا

أ. د. خرّم قادر المدير السابق لـ NIHCR باكستان

أ. د. رمضان ششن إرسيكا

زينب دروقال إرسيكا

د. صادق أوناي إرسيكا

د. صالح سعداوي إرسيكا

أ. د. صبحي ساعتجي جامعة معمار سنان

أ. د. طالب كوجوك جان جامعة مرمرة

أ. د. عامر باسيج إرسيكا

أ. د. عزمي أوزجان رئيس جامعة بيلجك

أ. د. فاضل بيات إرسيكا

أ. د. محمد إبشيرلي جامعة الفاتح

أ. د. محمد عاكف آيدين جامعة مديبول

أ. د. مرتضى بدر جامعة استانبول

د. نزيه معروف إرسيكا

هيئة المستشارين

الرئيس: أ. د. أكمل الدين إحسان أوغلى الأمين العام السابق لمنظمة التعاون الإسلامي

د. حمد الضوياني رئيس هيئة الوثائق والمحفوظات الوطنية - عمان

أ. د. بهيجة زلاطار معهد الاستشراق سراييفو

أ. د. خليل إينالجيق جامعة بيلكنت

أ. د. رفائيل حكيموف أكاديمية تتارستان للعلوم

أ. د. ريجارد بوليت جامعة كولومبيا

أ. د. سعد عبد العزيز الراشد عضو مجلس إدارة إرسيكا

أ. د. شريف أحمدي مقدونيا

أ. د. طوفان بوزبينار عضو الهيئة الإدارية لمجلس التعليم العالي التركي

أ. د. عبد الرحمن المودن جامعة محمد الخامس - المغرب

أ. د. عبد الرحيم أبو حسين الجامعة الأمريكية - بيروت

أ. د. عبد الرحيم بنحده جامعة محمد الخامس - المغرب

أ. د. فريدون أمه جان جامعة 29 مايس

أ. د. فيصل الكندري جامعة الكويت

أ. د. كلاوس كريسر جامعة مونيخ

أ. د. كوك خان جتين صايا رئيس مجلس التعليم العالي التركي

أ. د. ماجدة مخلوف جامعة عين شمس

أ. د. محمد باغريه جامعة طهران

أ. د. محمد عدنان البخيت الجامعة الأردنية

أ. د. محمد المرّ هيئة الثقافة والفنون، دبي

أ. د. مرورت أبو السيتوفا المعهد الأكاديمي الكازاخستاني

أ. د. مصطفى فايده جامعة مرمرة

أ. د. ميخائيل ماكسيم جامعة بخارست

أ. د. هيث لوري جامعة برينيستون

أ. د. وجيه كوثراني المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات - بيروت

أ. د. ويليام شيه جامعة بادوا

هـــــذه المجلة

مجلة إرسيكا مجلة علمية محكمة تصدر مرتين في السنة، في الخريف والربيع، وتنشر مقالاتٍ علمية باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية وهي اللغات الرسمية للمركز

يتخذ مكتب تحرير مجلة إرسيكا مقره من مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية (إرسيكا) باستانبول

وتُعنى بمختلف جوانب الحضارة الإسلامية مثل تاريخ الثقافة والفنون والعلوم والأدب والحرف التقليدية والآثار. وتهدف إلى الحفاظ على التراث المادي (التراث المكتوب والمعماري والثقافي والفني وغير ذلك) وغير المادي للحضارة الإسلامية.

وترحب بوجهٍ خاص بالدراسات التي لم يتم نشرها في وقتٍ سابقٍ والتي تتناول جوانب الحضارة الإسلامية في مختلف مناطق العالم الإسلامي وخارجه، من البلقان والقوقاز وآسيا الوسطى والشرق الأوسط والمغارب وأفريقيا وآسيا الجنوبية وجنوب شرق آسيا.

وتطمح ان تستجيب بما يُنشر فيها من مقالات واسهامات فكرية لحاجات الباحثين المختصين في مجالات التاريخ والدراسات الثقافية وعلم الاجتماع والعمارة والعلاقات الدولية والأنثروبولوجيا.

Copyright@2013 by IRCICA

التصميم
محمد نور آنبارلي

التجليد والطباعة
Karist Baskı Çözümleri

ملاحظات عامة وشروط النشر

يجب أن تتسم البحوث المرسلة إلى المجلة بالأصالة والمنهجية العلمية ولم ترسل إلى أي مجلة أخرى غيرها.

وأن يتراوح عدد كلمات البحث بين 4-10 آلاف كلمة.

على الباحث أن يدرج قائمة مصادره ومراجعه في نهاية البحث.

ويرفق مع بحثه ملخصاً له لا يتجاوز 300 كلمة مع بيان 5 كلمات دالة لمضمونها.

ويرسل سيرة ذاتية مختصرة له لا تتجاوز 300 كلمة وتتضمن عنوانه ورقم تلفونه.

تؤول حقوق النشر للبحث المنشور في المجلة لإرسيكا.

لا يجوز استنساخ المجلة أو أيٍّ جزءٍ منها أو توزيعها بأي شكلٍ من الأشكال وبأيٍّ وسيلةٍ كانت، ولا يجوز تخزينها في قاعدة بياناتٍ أو نظام لاسترجاع المعلومات، دون سابق إذنٍ من الناشر إرسيكا. ويمكن طلب إذنٍ رسميٍّ منً دائرة الأبحاث والنشر في إرسيكا.

لا تتحمل هيئة تحرير المجلة أو ناشرها إرسيكا مسؤولية الآراء والأفكار التي يعبَّر عنها أصحابها أو ناقدوها في مجلة إرسيكا.

تُرسل المقالات (MS Word) إلى العنوان الإلكتروني لإرسيكا (ircica@ircica.org)، أو العنوان البريدي:

IRCICA *Journal*, Barbaros Bulvarı, Yıldız Sarayı, Yaveran Binası,
Beşiktaş 34865 İstanbul

e-Mail: ircica@ircica.org

Tel: +90 212 259 1742 Fax: +90 212 258 43 65

لمزيد من المعلومات عن مجلة إرسيكا يُراجع الموقع الإلكتروني:

http: //www.ircica.org

في هذا العـــــدد

مقالات باللغة العربية

١٥

"إسهام المرأة في الوقف باليمن خلال دولة بني رسول"
(٦١٦-٨٥٨هـ / ١٢٢٨-١٤٥٤م)

الأستاذ الدكتور محمد أرناؤوط
جامعة العلوم الإسلامية العالمية, عمّان - الاردن

"The Contributions of Women to Charitable Waqfs during the Rasulid State in Yemen (616-858 AH/ 1228-1454)"

Prof. Muhammed Arnaoud
World Islamic Science and Education (WISE) University, Amman-Jordan

٣١

"الاستغلال البريطاني لفكرة الخلافة
في الهند خلال القرن التاسع عشر"

الأستاذة أسمى مهيبل
جامعة الجزائر

"The Abuse of the Idea of Islamic Caliphate by Britain in the 19th Century"

Prof. Asma Muhaibil
Algiers University-2, Algeria

في هذا العـــــدد

مقالات باللغة الإنجليزية

15

Incorporating the Maghrib as an Axis in World History

Gavin D. Brockett, Assoc. Prof.
Wilfrid Laurier University, Department of History and Coordinator of Muslim Studies, Ontario, Canada

"المغرب في محور التاريخ العالمي"

الأستاذ المساعد الدكتور ج. د. بروكت
جامعة ويلفريد لوريد (كندا)

29

"Al-Andalus" and Recovering the Cultural Legacy of the Moorish Presence in the Iberian Peninsula

Jose Tomaz Castello Branco, Prof.
Catholic University of Portugal

"التراث الثقافي الإسلامي في الأندلس وشبه جزيرة أيبيريا"

جوس توماس كاستلو برانكو
جامعة البرتغال الكاثوليكية

47

East Encounters West:

French Merchants and Islamic Law in the Ottoman Mediterranean (Late-Sixteenth and Early-Seventeenth Centuries)

Viorel Panaite, Prof.
Department of Islamic and Ottoman History, The University of Bucharest, Romania

"التفاعل الحضاري بين الشرق والغرب: التجار الفرنسيون في البحر الأبيض المتوسط العثماني والفقه الإسلامي
(أواخر القرن ١٦ - أوائل القرن ١٧)

البروفيسور فيوريل بانيت
جامعة بوخارست (رومانيا)

افتتاحية

كان مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية (إرسيكا) باعتباره مؤسسة ثقافية تابعة لمنظمة التعاون الإسلامي قد شرع في نشر مجلة دولية محكمة باسم "مجلة إرسيكا" تكون منبراً علمياً يُعنى بدعم الدراسات الأكاديمية في مجال التاريخ والفنون والحضارة الإسلامية. وقوبل العدد الأول منها بترحيب كبير، وها نحن اليوم نقدم بكل فخر واعتزاز عددها الثاني إلى الأوساط العلمية.

وتقوم "مجلة إرسيكا" بنشر مقالاتها العلمية في العديد من المجالات في ميدان الحضارة الإسلامية، في الآثار القديمة، والتاريخ الثقافي، والفنون، والعلوم، والآداب، والحرف والصناعات اليدوية وغيرها؛ وهي تستهدف عرض الأوجه المادية (المشخصة) والمعنوية (المجردة) للثقافة الإسلامية بما تضم من أشكال مدونة ومعمارية وثقافية. وإلى جانب تمتع المجلة برؤية عالمية شاملة إلاّ أنها تسلط الضوء أكثر على منطقة البلقان والقوقاز وآسيا الوسطى وشمال إفريقيا وجنوب الصحراء الكبرى في الشرق الأوسط وجنوب آسيا وجنوب شرق آسيا. ويبدو أن مظاهر الترحيب التي لقيها العدد الأول سوف يكون من شأنها التحفيز على الخروج بدراسات أصلية في شتى مجالات الحضارة الإسلامية. وهي تستقبل المقالات العلمية بالعربية والإنجليزية والفرنسية وتنشرها بعد تحكيم دولي مستهدفة الوصول إلى دورية تحظى بالاحترام والتقدير في مجالها.

والمعروف أن إرسيكا مركز بحوث تخصص منذ قيامه عام 1980م وحتى اليوم في مجال التاريخ الإسلامي والحضارة وتاريخ العلوم والفنون، ومؤسسة علمية تحظى بالقبول في المجتمع الدولي وتتعاون مع شبكة دولية واسعة من رجال العلم العاملين في المجالات التي أنيطت بها. وقد استطاع خلال المدة التي تتجاوز الثلاثين عاماً منذ قيامه وحتى الآن أن يقوم بتنظيم العديد من المؤتمرات والندوات والمسابقات

الدولية، ويقوم بنشر العديد من الكتب المرجعية وألبومات الصور والمشروعات البحثية المختلفة.

وكان العدد الأول من "مجلة إرسيكا" قد حظي بترحيب كبير بين أوساط الباحثين في مجالات التاريخ الإسلامي وحضارته. وبعد أن جذب ذلك العدد الأول انتباه الأوساط العلمية والروح العالية والثقة التي شعرنا بها إثر ذلك فإننا نحرص اليوم على أن نقدم إليكم العدد الثاني ضمن مقاييس عالية من الجودة. ونشعر بامتنان عظيم ونحن نقدم لكم من خلاله خمس مقالات، ثلاث منها بالإنجليزية واثنتان بالعربية، وجميعها كتبت على أيدي باحثين متخصصين.

وفي المقالة الأولى من هذا العدد يقوم الدكتور ج. د. بروكت من جامعة ويلفريد لورير (كندا) بدراسة الدور الذي لعبته بلاد المغرب في التاريخ، ويحاول العثور بطريقة منهجية على إجابة عما إذا كانت المغرب تشكل مركزاً لتاريخ العالم. ولكي يطرح بروكت علينا الدور الذي تلعبه المغرب في تاريخ العالم يقف عند ضرورة إيجاد سبل جديدة لذلك مع تغيير منظورنا والنظر حول مركزية المغرب في تاريخ العالم. وهذه المقالة الطريفة من البروفيسور بروكت تقف عند مجال توليه "مجلة إرسيكا" أولوية خاصة؛ إذ تتحدث عن ضرورة إيجاد نظرة أكثر شمولاً لتاريخ العالم وذلك على عكس المجالات التقليدية في التاريخ والتي تجري دراستها في جامعات أمريكا الشمالية والتي تدخل معها أيضاً كتابة التاريخ في كندا وأمريكا وأوربا وروسيا. وهذا الفهم الشامل في تصور تاريخ العالم وتناول كتابته يستحق منا اهتماماً خاصاً.

والمقالة الثانية في هذا العدد هي دراسة قام بها البروفيسور جوس توماس كاستلو برانكو من جامعة البرتغال الكاثوليكية يتناول فيها بأسلوب مقارن كلاً من قرطبة ودمشق واستانبول باعتبارها مدناً رئيسية في عملية التفاعل الثقافي على مدى التاريخ. ويقترح البروفيسور برانكو علينا في الدراسات المتعلقة بالتاريخ والحضارة في البحر الأبيض المتوسط أن تكون من خلال منظور أطلق هو عليه اسم "الغربي". ويؤكد برانكو في نفس الوقت على أهمية ذلك المنظور الذي يضم جذوراً ذات تشعبات متعددة للتراث الثقافي، الأوربي والإفريقي والبري والبحري على السواء، والذي عاشه المسلمون والمسيحيون واليهود معاً في سلام.

ويقدم لنا البروفيسور برانكو أدلة شافية على أن المدن النموذجية التي تحيط بالبحر الأبيض المتوسط وتمثلها كل من قرطبة ودمشق واستانبول كانت ساحة ثقافية مفتوحة ومجالاً حاضناً لرجال العلم من رياضيين وفلكيين وأطباء وفلاسفة وغيرهم. فقد تمتع المسيحيون واليهود المقيمون بأعداد لا يستهان بها في تلك المدن بحرية واسعة وشاملة، وحظوا بتسامح في معتقداتهم التي مارسوها باطمئنان. وكان لتلك المجتمعات غير المسلمة نظم حقوقية فضلاً عن وجود زعمائهم الدينيين، وكان باستطاعتهم تولي العديد من الوظائف في إدارة الدولة. والملاحظ حسبما لفت البروفيسور برانكو انتباهنا إليه، وهو محق في ذلك، أنه لا يزال هناك تشابه كبير بين الدول والشعوب المختلفة التي تسكن حوض البحر الأبيض المتوسط حتى وإن زاد البعد بين شواطئها في العهود الأخيرة. وهذا التشابه التاريخي والثقافي والديني إنما هو نتيجة طبيعية لتاريخ وتراث مشترك يمتد ألفي عام لشعوب متعددة عاشت في العالم القديم (إفريقيا وآسيا وأوربا).

وتأتي المقالة الأخيرة في قسم الإنجليزية من هذا العدد للبروفيسور فيوريل بانيت أحد أعضاء هيئة التدريس بجامعة بوخارست في رومانيا، وهي دراسة اعتمد فيها على وثائق الأرشيف حول العلاقات المتشابكة بين التجار الفرنسيين والبحّارة العثمانيين في البحر الأبيض المتوسط خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، وكيف أن الفقه الإسلامي كان هو المرجع عند ظهور مشكلة من المشاكل. وأساس الدراسة مخطوطة تقع في 278 ورقة تضم وثائق عثمانية ترجع إلى أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر محفوظة بقسم الشرقيات في المكتبة الوطنية بباريس. وهذه الوثائق تحتوي مذكرات لشخصيتين بارزتين تقاطعت مواقعهما في البحر الأبيض المتوسط، وهما أندريه دو رير دي ماليزير وفرانسوا سافاري دي براوس. وكان فرانسوا سافاري سفيراً لفرنسا في استانبول في أوائل القرن السابع عشر، وكان صاحب دور حاسم في الحياة الوظيفية لأندريه دو رير دي ماليزير الذي كان هو الآخر لغوياً ومفكراً بارزاً في عصره. وكان دو رير مساعداً لقنصل فرنسا في الإسكندرية خلال عشرينات القرن السابع عشر، وسعى آنذاك لتحقيق المصالح الفرنسية في استانبول. غير أنه نال شهرته في الأساس من ترجمته التي قام بها للقرآن الكريم بالفرنسية ونشرت عام 1647م،

وهذه الترجمة التي طبعت مرات عديدة قد تُرجمت أيضاً في القرنين السابع عشر والثامن عشر إلى الفلمنكية والإنجليزية والألمانية. وهذه المقالة اللافتة للانتباه تحتوي آراءً فقهية للأجانب حول فهم العثمانيين للإسلام، كما تضم معلومات قيمة حول الملاحة العثمانية والتجارة في البحر الأبيض المتوسط، وكذلك حول المشاكل التجارية والتدابير اللازم اتخاذها ضد أعمال القرصنة.

أما في قسم المقالات العربية من هذا العدد فهناك مقالتان علميتان قيمتان، إحداهما كتبها الأستاذ الدكتور محمد أرناؤوط من جامعة العلوم الإسلامية العالمية (عمان، الأردن) تناول فيها إسهامات المرأة اليمنية في الحياة الثقافية والاجتماعية في اليمن بما أقامت من أوقاف خلال عهد بني رسول (616-858هـ/1228-1454م). ويذكر البروفيسور أرناؤوط في هذه المقالة الثرية أن حكام بني رسول وكبار القوم فيها أبدوا اهتماماً كبيراً بالعلم والعلماء، وأقاموا العديد من المدارس. وكانوا أول من أمسك السجلات لقيد موارد ونفقات الأوقاف، كما كان من الواضح أن الثريات من النساء أسهمن في الحياة العامة والحياة العلمية عن طريق الأوقاف التي أقمنها في عهد بني رسول؛ فقد انخرط حكام بني رسول وزوجاتهم وأبناؤهم في إقامة العديد من المدارس والأوقاف التي تخدم الشأن الاجتماعي، بل إن العاملين في بلاط بني رسول قد اندمجوا في ذلك الجو وأسهموا هم الآخرون في إقامة المؤسسات الاجتماعية. وهذه المقالة تورد سرداً لأبرز النساء اللائي أقمن مدارس وأوقافاً ابتداءً من زوجة شمس الدين علي بن رسول مؤسس الأسرة الرسولية حتى زوجة الملك الناصر (803-828هـ/1401-1426م) آخر من أقمن الأوقاف في ذلك العصر، وتعرض المقالة ما أقامته هؤلاء النسوة في ذلك المجال من منشآت خيرية.

وتأتي المقالة الثانية في قسم المقالات العربية للأستاذة أسمى مهيبل من جامعة الجزائر الثانية حول الكيفية التي استغل بها البريطانيون مؤسسة الخلافة الإسلامية لخدمة أغراضهم في القرن التاسع عشر. وتؤكد الأستاذة أن مؤسسة الخلافة اكتسبت أهمية عند العثمانيين في القرن التاسع عشر، ووُلِدت فكرة الجامعة الإسلامية آنذاك بقصد حماية الأراضي العثمانية. وعلى ذلك النحو كان السلاطين العثمانيون يستخدمون لقب "خليفة المسلمين" في علاقاتهم مع مسلمي جاوة والهند وروسيا، وكذلك مع مسلمي شمال إفريقيا وغرب إفريقيا على السواء.

لقد رأى الإنجليز أنه يمكنهم استغلال صداقتهم مع السلطان العثماني لتأكيد هيمنتهم ونفوذهم في آسيا، وعلى ذلك لم يعارضوا السلاطين العثمانيين في أن يقيموا علاقات مع المسلمين في المستعمرات البريطانية وأن يسعوا لتعزيز نفوذهم من خلالها. وهذا كان أمراً مهماً لدى الإنجليز ولا سيما في الهند، إذ اعتقدوا أن السلطة المعنوية للسلطان (الخليفة) سوف تكون في رأيهم مصدراً لمشروعيتهم، وأنها سوف تيسّر أمر وجودهم في شبه القارة الهندية. ولكن رغم علمهم بأن الخليفة قد يُحَرِّض على الثورة بين المسلمين إلا أنهم لم يقفوا أمام مساعي الخلافة.

وزاد النفوذ السياسي للإنجليز في العاصمة العثمانية خلال سنوات حرب القرم (1853-1856م)، فاستغلوا ذلك النفوذ وطلبوا من السلطان عبد المجيد (1830-1861م) أن يصدر فتوى تدعو مسلمي الهند لترك السلاح والحفاظ على الأمن والاستقرار. وكان لتلك الفتوى أثرها في السيطرة على المقاومة الدائرة ضد القوات البريطانية هناك وفي استمرار النفوذ الإنجليزي خلال الأعوام التالية. وتذكر الأستاذة أسمى أن تلك الدعوة - التي صدرت باسم السلطان عبد العزيز خليفة المسلمين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأول سلطان تقرأ الخطبة باسمه في الهند – قد قبلها العلماء ورجال الدين المسلمون هناك. وهذا التصرف الذي غَضَّ الإنجليزُ الطرف عنه قد انتشر في الأراضي الهندية حتى تحول مع مرور الزمن إلى عادة جارية.

وفي سياق المقالات الهامة الواردة في العدد الثاني من هذه المجلة نجدد دعوتنا لرجال العلم من مختلف البلدان وفي شتى المجالات بأن يبعثوا مقالاتهم العلمية إلى "مجلة إرسيكا". ونود كهيئة تحرير ونحن نقدم هذا العدد الثاني إلى الأوساط العلمية الدولية أن نقول إننا بذلنا قصارى جهدنا لكي تتحقق الجودة العالية التي جاء بها العدد الأول في هذا العدد الثاني أيضاً. كما نود ونحن نقدم العدد الثاني من المجلة أن نعرب باسم إرسيكا عن سعادتنا وفخرنا الكبيرين آملين أن تكون "مجلة إرسيكا" منبراً علمياً متميزاً للدراسات الدولية التي تجرى في مجال تاريخ الإسلام وحضارته.

الدكتور خالد أزن

مدير عام إرسيكا

إسهام المرأة في الوقف باليمن خلال دولة بني رسول

858-616 هـ/ 1454-1228م

أ.د. محمد الارناؤوط[*]

مقدمة

يتميّز التاريخ الوسيط لليمن بتتابع الدول المختلفة التي ظهرت فيه منذ عهد الخليفة العباسي المأمون (198-218هـ/813-833 م)، وذلك ابتداء من دولة بني زياد 205-402 هـ/ 821-1012م[1]، ودولة بني نجاح التي تعود أصولهم إلى الحبشة 403-555هـ/ 1013-1150م والتي برزت في نهايتها الملكة أم فاتك النجاحي(توفيت 546 هـ/1142م) خلال عهد ابنها فاتك 540-555هـ/ 1136-1150م[2]، وهي التي عاصرت الدولة الصليحية في اليمن 439-532 هـ/ 1045-1138م التي قامت باسم الخلافة الفاطمية في مصر والتي انتهت بحكم السيدة أروى الصليحي 492-532هـ/ 1099-1038م[3]. وعلى عكس الدولة الصليحية كانت دولة بني مهدي 553-569هـ/1158-1174م حنفية المذهب وتطرفت في موقفها من المذاهب الاخرى حتى استجار بعض أشراف اليمن بالخليفة الفاطمي العاضد الذي أمر وزيره صلاح الدين الايوبي بنجدتهم[4].

---

* جامعة العلوم الاسلامية العالمية, عمّان - الاردن

1 للمزيد عن دولة بني زياد انظر: أحمد حسين شرف الدين، اليمن عبر التاريخ، ط 3، الرياض 1980، ص 188-189.

2 للمزيد عن دولة بني نجاح انظر: محمد عيسى الحريري، معالم التطور السياسي في دولة بني نجاح باليمن وعلاقتهم بالصليحيين، الكويت (دار القلم) 1984 .

3 للمزيد عن الدولة الصليحية و"الملكة أروى" انظر: حسين بن فيض الله االهداني، الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن، ط 3، ببيروت (منشورات المدينة)1986، فاطمة المرنيسي، السلطانات المنسيات نساء رئيسات في دولة الاسلام، ترجمة جميل معلا وعبد الهادي عباس، دمشق (دار الحصاد) 1994، ص 195-229.

4 في ذلك الحين كان صلاح الدين الايوبي وزيراً للخليفة الفاطمي العاضد لدين الله، وبقي في هذا المنصب حتى 567هـ/ 1171م .

وقد أرسل صلاح الدين أخاه توران شاه على رأس جيش تمكن من دخول زبيد في 569هـ/1174م ليؤسس بذلك دولة بني أيوب في اليمن التي استمرت حتى 626هـ/ 1126م.وخلال عهد هذه الدولة برز آل رسول الذين خدموا الدولة الايوبية في مصر وأسّس أحدهم (عمر بن علي بن رسول) دولة بني رسول في اليمن التي استمرت خلال 626-858هـ/ 1229-1454م.

ومع بروز الدور السياسي للمرأة في بعض الدول السابقة (حالة الملكة أم فاتك و الملكة أروى الصليحي) إلا أن اليمن عرف نهضة اجتماعية وثقافية في الدولتين المتداخلتين (دولة بني أيوب ودولة بني رسول) تذكّر بما عرفته بلاد الشام في الدولتين المتداخلتين الزنكية والايوبية، وبالتحديد فيما يتعلق بإقبال الطبقة الحاكمة الجديدة (الكردية والتركية) على الوقف وإسهام المرأة في ذلك، وهو ما أدى إلى إزدهار الحياة العلمية في البلاد .

وفي هذا السياق تجدر الاشارة إلى أن دولة بني أيوب قد اتصفت، كما هو الامر مع مثيلتها في بلاد الشام، باهتمام حكامها بالعلم والعلماء والاقبال على الوقف لنشر العلم في البلاد. ونظرا لان توران شاه لم يبق سوى سنة في اليمن فإنّ الوجود الحقيقي لدولة بني أيوب لم يبدأ إلا مع وصول الاخ الاخر لصلاح الدين سيف الاسلام طغتكين بن أيوب واستقراره في اليمن 579-594هـ/ 1184-1194م، الذي اشتهر بعلمه وتقديره للعلماء، إذ كان كما يصفه المؤرخ الدبيع (توفي) أنه "كان فقيها له مقروءات ومسموعات"[5]. وجاء بعده ابنه اسماعيل الملقب بالمعز 594-599هـ/ 1194-1204م الذي يعتبر أول من بنى المدارس في اليمن، حيث بنى أولا "المدرسة السيفية" (نسبة إلى أبيه سيف الاسلام) في تعز ثم "مدرسة الميلين" في زبيد[6]. ويقول عنه المؤرخ الدبيع أنه "كان شاعرا له ديوان شعر كله جيد"[7].

---

[5] عبد الرحمن بن علي الدّيبع، الفضل المزيد في بغية المستفيد في أخبار زبيد، تحقيق د. يوسف شلحد، صنعاء (مركز الدراسات والبحوث اليمني) 1983، ص 84 .

[6] المصدر السابق، ص 84-85. ونظرا لانه في بداية الحكم العثماني لليمن قام الامير اسكندر موز عام 945 هـ بتجديد بعض عمارة هذه المدرسة وأوقف عليها المزيد فقد أصبحت تشتهر باسم "المدرسة الاسكندرية" : عبد الرحمن بن عبد الله الحضرمي، زبيد مساجدها ومدارسها العلمية في التاريخ، دمشق (المركز الفرنسي للدراسات اليمنية بصنعاء و المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق) 2000، ص 153 .

[7] ابن الديبع، بغية المستفيد، ص 85 .

ومع قتل الملك المعز على يد العسكر الاكراد عام 599هـ/ 1204م آل الامر إلى الاتابك سنقر الذي أصبح الان الاتابك لابن سيف الاسلام وهو طفل صغير باسم الناصر، الذي بنى بدوره مدرسة كبيرة في زبيد خصّصت للمذهب الحنفي[8]. ولما تعرّض الناصر بدوره للقتل في محرم 611 هـ/ أصبحت أم الناصر "مدبرة للملك ستة أشهر"[9]، إلى أن وصلت الأخبار إلى مصر فقام الملك العادل بإرسال حفيده الملك المسعود على رأس جيش كبير إلى اليمن في أواخر 611هـ/، حيث تزوج ابنة الاتابك سنقر المعروفة ببنت جوزة التي أصبح لها شأنا في الدولة[10].

ولما غادر الملك المسعود اليمن بدعوة من والده الملك الكامل ليعطيه دمشق خلفا لعمه الملك المعظم عيس الذي توفي آنذاك (624هـ/1227م) استناب الامير عمر بن رسول مكانه، ولكن الملك المسعود توفي في الطريق بمكة المكرمة في 626هـ/ 1229م. وعندما وصل الخبر إلى ابن رسول "أضمر الاستقلال بالملك و أظهر أنه نائب للمسعود" كما يقول الخزرجي(توفي 812هـ/1409 م) مؤرخ دولة بني رسول[11]، وبذلك وضع أساس الدولة الجديدة التي استمرت حتى 858هـ/ 1454م.

دولة بني رسول واهتمامها بالوقف

فيما يتعلق ببني رسول تختلف المصادر حول أصولهم، و بالتحديد حول كونهم من التركمان أو من الاكراد. فقد أخذ بالاصل التركماني لهم ابن

---

[8] اشتهرت هذه المدرسة أيام المؤرخ ابن الديبع باسم "مدرسة ابن دحمان" أو "المدرسة الدحمانية" نسبة إلى الفقيه المعروف محمد بن ابراهيم بن دحمان الذي كان أول من درّس فيها والذي جاء بعده علي بن عمر بن محمد بن دحمان : الحضرمي، زبيد، ص 155.

[9] ابن الدّيبع، بغية المستفيد، ص 86 .

[10] المصدر السابق، ص 87 و طه حسين عوض هديل، الحياة الاجتماعية في عصر الدولة الرسولية 626-858هـ/ 1229-1454 م، عدن (جامعة عدن) 2010، ص 312 .

[11] علي بن الحسن الخزرجي، العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، عني بتصحيحه محمد بسيوني، القاهرة (مطبعة الهلال) 1329 هـ / 1911، ج 1 ص 46.

خلدون[12] وابن حجر[13] و ابن تغري بردي[14]، بينما أخذ بالاصل الكردي لهم المقريزي[15] وهو ماتميل اليه بعض الدراسات الحديثة[16]. ويبدو أن التمييز بين التركمان والاكراد لم يكن واضحا بدليل أن المؤرخ اليمني المعاصر للحكم الايوبي وتأسيس دولة بني رسول ابن حاتم اليامي(توفي بعد 702هـ/ 1302م) جمع العنصرين معا تحت مسمى "الغز" في كتابه "السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك من الغز باليمن[17].

وسواء كانوا من التركمان أو من الاكراد تجمع الروايات على أنهم ينتسبون إلى محمد بن هارون الذي أصبح يشتهر بلقب "رسول" لعمله بنقل الرسائل بين أركان الدولة، سواء من قبل العباسيين حسب الرواية التي تقول إنهم من التركمان أو من قبل الايوبيين حسب الرواية التي تقول أنهم من الاكراد، حيث برز ابنه علي بن محمد في مصر بخدمة الاسرة الايوبية الذي انتقل مع أولاده الاربعة(الحسن وموسى وأبو بكر وعمر) إلى اليمن مع سيف الاسلام طغتكين بن أيوب عام 579هـ/ 1183م. وبعد وفاة الوالد تدرج الاولاد في خدمة الدولة الايوبية باليمن. ولكن الملفت للنظر هنا أن الملك الايوبي الاخير المسعود حين أراد السفر إلى الشام استناب الاخ الاصغر عمر بن رسول، ولكن هذا أجابه "لا أفعل حتى تبعد عني أخوتي"، وهوماحصل[18].

---

[12] عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، تاريخ ابن خلدون المسمى العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت (دار الكتب العلمية) 1993، ج 5 ص 606 .

[13] شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ط 2، بيروت (دار الكتب العلمية) 1986، ج 4 ص 264-265 .

[14] جمال الدين أبو المحاسن يوسن ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة (الهيئة المصرية العامة للكتاب) 1984، ج 2 ص 396 .

[15] أحمد بن علي المقريزي، الذهب المسبوك في ذكر من حجّ من الخلفاء والملوك، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة (مكتبة الخانجي) 1955، ص 79 .

[16] محمد بن يحيى الفيفي، الدولة الرسولية في اليمن : دراسة في أوضاعها السياسية والحضارية 803-827هـ/ 1400-1424م، بيروت (الدار العربية للموسوعات) 2005، ص 31 .

[17] محمد بن حاتم بن أحمد اليامي، السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك من الغز باليمن، تحقيق ركس سمث، لندن (مجموعة جب التذكارية) 1974.

[18] ابن الدّيبع، بغية المستفيد، ص 87 .

ولكن عمر بن رسول لم يتعجل إعلان الاستقلال عن الدولة الايوبية بل أخذ يتقرّب من أهل اليمن بأكثر من وسيلة حتى يتمكّن في البلاد. فقد ادعى للاسرة نسبا يصل إلى جبلة بن الايهم آخر أمراء الغساسنة الذين تعود أصولهم إلى اليمن. وحسب هذا الادعاء الذي يتبناه الخزرجي دون تحفظ فإنّ ابن الايهم بعد الحادثة المشهورة له مع الخليفة عمر بن الخطاب لجأ إلى بلاد الروم واستقر هناك، وبعد وفاته انتقل أولاده وأحفاده إلى بلاد التركمان "فأقاموا بينهم وتكلموا بلغتهم وبعدوا عن العرب"، ولما "خرج أهل هذا البيت إلى العراق نسبهم من يعرفهم إلى غسّان ونسبهم من لايعرفهم إلى التركمان"[19].

ومن ناحية أخرى فقد تحوّل ابن رسول من المذهب الحنفي إلى المذهب الشافعي الذي كانت عليه الأغلبية في اليمن، بناء على رؤية للرسول محمد (ص) كما زعم وبنى لأتباع هذا المذهب ست مدارس (خمسة في اليمن وواحدة في مكة) وبالإضافة إلى ذلك فقد أخذ يولّي من أقاربه وأعوانه من يثق بهم. وبعد كل هذه الاستعدادات أعلن عمر بن رسول نفسه ملكا على اليمن في 626هـ/ 1228م وتلقب بالملك المنصور وسك النقود باسمه كما أمر الخطباء بذكر اسمه في الخطبة. ومع ذلك فقد رأى ابن رسول أن يستمد الشرعية من الخليفة العباسي في بغداد فوجه كتاباً إلى الخليفة المستنصر في 631هـ/ 1233م يطلب فيه تشريفه بالنيابة، وهو ما حصل عليه في 632هـ/ 1234م.[20] ومع الملك المؤسس للدولة الرسولية نجد اهتماما كبيرا بالعلم والعلماء والوقف عليهم. فقد بنى مدرسة بمكة المكرمة ومدرستين بتعز(الوزيرية والغرابية) ومدرسة بعدن مؤلفة من قسمين الاول للشافعية والثاني للحنفية، ومدرسة للحديث النبوي في تعز، ومدرسة في حد المنسكية من نواحي سهام، و "وقف عليها أوقافا جيدة تقوم بكفاية الجميع"[21].

---

19 الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج 1 ص 25-27 .

وتجدر الاشارة هنا إلى أنّ روايات أخرى تدّعي انتساب شعوب أخرى(الاكراد والشركس والالبان) إلى جبلة بن الايهم وتوظف لاغراض سياسية. للمزيد انظر : محمد م. الارناؤوط ،"الاصول العربية لبعض الشعوب المسلمة في أوربا"، مجلة "المنارة" ج 2 عدد 1، المفرق (جامعة آل البيت) 1997، ص 65-82 .

20 الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج 1 ص 54-55 ؛ أبن أبي مخرمة، ثغر عدن وتراجم علمائها، اعتنى به حسن علي عبد الحميد، بيروت- عمان (دار الجليل ودار عمار) 1987، ص 205-207 .

21 ابن أبي مخرمة، تاريخ ثغر عدن، ص 210 .

ويبدو أن الأصل التركي أو االكردي للأسرة وصعودها في الدولة الأيوبية بمصر جعلها تنشر في اليمن ثقافة جديدة. فقد اهتم ملوك دولة بني رسول بالعلم والعلماء وأنشأوا الكثير من المدارس في أرجاء اليمن في إطار الاوقاف الكثيرة التي أقاموها لإدامة هذه المنشآت التعليمية. ومما يعبّر عن ذلك أن الدولة الرسولية كانت من أوائل الدول في العالم الاسلامي التي خصصت للاوقاف ديوان خاص في عهد الملك المؤيد 696-721 هـ/ 1297-1321 م يشرف على جميع الاوقاف التي أنشأها آل رسول وغيرهم لضبط أصولها ومصارفها، وهو الذي أشار له في حينه المؤرخ ابن عبد المجيد (توفي 744ه/1343 م) في كتابه "بهجة الزمن"[22].

ومن ناحية أخرى فقد كان من الملفت للنظر البروز الواضح للمرأة في الحياة العامة وإسهامها في الحياة العلمية، على نمط ما كان موجوداً في مصر وبلاد الشام، من خلال الاوقاف الكثيرة التي أقامتها في أرجاء اليمن. ومن المفترض في هذه الحالة أن تكون مثل هذه المشاركة للمرأة في الحياة العلمية بواسطة الاوقاف أن تعبّر فيما تعبّر عن تمتعها بثروة تتيح لها مثل هذه المشاركة. ويبدو هذا بوضوح في دولة بني رسول، كما في الدولة الايوبية في بلاد الشام، حيث أن ملوك الاسرة الحاكمة الجديدة وزوجاتهم وبناتهم كانوا يخصصون جزءا من ثروتهم لانشاء الاوقاف الجديدة على المدارس وغيرها من المنشآت الاجتماعية التي تقدم الخدمات المختلفة للمجتمع. ومع إقبال أفراد هذه الاسرة من رجال ونساء على الوقف على العلم نجد أن مثل هذا الاهتمام قد امتد بدوره ليشمل الحاشية وحتى الجواري .

إسهام المرأة في الوقف

يرتبط إسهام المرأة في الوقف كما مرّ معنا بمكانتها في المجتمع، وبالتحديد في تمكينها من الثروة بواسطة الارث أو المنصب الذي تتولاه أو العمل الذي تمارسه. وفيما يتعلق بدولة بني رسول فقد حظيت المرأة باحترام حصتها من الارث في الوقت الذي كانت فيه التقاليد المحلية تحرم المرأة من الارث بعد زواجها[23]. ومن ناحية

---

[22] تاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد، تاريخ اليمن المسمى بهجة الزمن في تاريخ اليمن، تحقيق عبد الله محمد الحبشي و محمد أحمد الشيباني، صنعاء (دار الحكمة) 1988، ص 185 .

[23] عوض هديل، الحياة الاجتماعية، ص 327 .

أخرى فقد كانت نساء الأسرة الرسولية أكثر نساء عصرهن امتلاكا للثروة، وهو ما سمح لهن بتخصيص قسم من هذه الثروة لانشاء الاوقاف الراعية للعلم. وعلى سبيل المثال فقد كانت بنت جوزة أكثر نساء عصرها ثراء نتيجة للاموال التي ورثتها من أبيها الاتابك سنقر المذكور أعلاه، ثم للاموال التي ورثتها عن زوجها الملك المسعود الايوبي[24]. وخلال الدولة الرسولية كانت المرأة تتولى أحيانا أعلى المناصب التي تتيح لها في اليمن الوصول إلى الثروة. ومن ذلك أن الملك المنصور نور الدين عمر بن علي لما قسّم الاقطاعات في عهده أقطع اقليم إب لامرأة هي أم الامير بدر الدين بن فتح الدين[25]. ومع هذه المكانة التي بلغتها المرأة في الدولة الرسولية نجد أنها تحظى بالالقاب نفسها تقريبا التي عرفت بها خلال الدولة العباسية المتأخرة مثل الجهة والحرة والملكة والخاتون و الدار أو الادر السعيدة[26].

ويبدأ اسهام المرأة في الوقف بالظهور مع مؤسس البيت الرسولي الامير شمس الدين علي بن رسول، حيث أن زوجته الحرة لؤلؤة بنت يحيى بن أحمد العنسي قامت بإنشاء المدرسة العومانية في ذي جبلة[27]. وقد تواصل هذا الاسهام بزخم أكبر مع ابنة على بن رسول التي اشتهرت بلقب الدار النجمي (نسبة إلى زوجها نجم الدين بن أبي بكر زكريا) التي بنت عدة مدارس في أرجاء اليمن حتى قال عنها المؤرخ الجندي انها كانت "من الصالحات المحسنات، ولم تزل هذه الحرة على الطريق المرضي، ليس في ذي جبلة رزق للطلبة غالبا أو ظاهرا منذ عصرها إلى عصرنا سنة ٧٢٩، وأعني بالرزق الاسباب الظاهرة من المدارس و المساجد، إلا منها أو من حاشيتها"[28]. ومن أشهر المدارس التي بنتها "المدرسة النجمية" في ذي جبلة التي أوقفت عليها وقفا عظيما، و "المدرسة الشرفية" (نسبة إلى أخيها شرف الدين) في ذي جبلة و "المدرسة الشهابية"(نسبة إلى أخيها شهاب الدين) في

---

24 المرجع السابق، ص 321 .

25 بدر الدين محمد بن حاتم اليامي الهمداني، السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك من الغز باليمن، تحقيق ركس سمث، لندن 1974، ص 233.

26 عوض هديل، الحياة الاجتماعية، ص 314 .

27 الجندي، السلوك، ج 2 ص 172 .

28 المصدر السابق، ج 2 ص 252 .

ذي جبلة[29]. ومع كثرة الاوقاف التي خصّصتها لهذه المدارس إلا أن سوء إدارتها أدى إلى اندثارها ولم يبق منها سوى "المدرسة الشرفية" التي لاتزال معظم معالمها موجودة حتى الان[30]. والى جنوب هذه المدرسة بنت وصيفة الدار النجمي المعروفة بلقب "زات دارها" مدرسة عرفت باسم "المدرسة الزاتية" وخصّصت لها الاوقاف، وهي من االمدارس القليلة التي بنيت في عصر الدولة الرسولية ولاتزال موجودة حتى الان[31].

ويظهر هذا الاسهام بشكل أوضح خلال عهد مؤسس الدولة الرسولية الملك المنصور عمر بن علي 626-647هـ/ 1229-1249 م، وبالتحديد مع زوجته الحرة وابنته الدار الشمسي. وتجدر الاشارة إلى أن عمر بن علي كان قد تزوج أولا بنت الأتابك سنقر بن عبد الله الأيوبي بعد أن توفي عنها الملك الأيوبي المسعود، والتي أنجبت له ولدين (المفضل أبو بكر والفائز أحمد) وبنتين. وكان الأتابك سنقر ممن اهتموا بالعلم والعلماء وأسس لذلك المدرسة الأتابكية في ذي هزيم، التي دفن في جوارها[32]. ولكن الصراع على الحكم بعد اغتيال الملك المنصور، الذي كان فيه للنساء دور أيضاً، انتهى إلى وصول الابن الآخر للمنصور (يوسف) من زوجته الأخرى، الذي تلقب بالملك المظفر[33]. وكان لأمه الحرة ولأخته الشقيقة الدار الشمسي دور في تسهيل وصوله إلى العرش ولذلك كان من الطبيعي أن تبرز أكثر خلال عهده 647-694هـ/ 1250- 1294م حتى أن الخزرجي يقول عن المظفر أنه "كان يبرها ولا يخالف لها رأياً"[34].

وعلى حين أن ابن الدّيبع يذكر عن أم الملك المظفر أنها بنت "المدرسة السيفية" الكبرى في زبيد التي عرفت أيضاً بـ"مدرسة أم السلطان"، وهي التي بقيت

---

29 المصدر السابق، ج 2 ص 252-253 .

30 د. عبد العزيز بن راشد السنيدي، المدارس اليمنية في عصر الدولة الرسولية 626-858هـ/ 1229-1454م، الرياض (د.ن) 1424هـ/2003 م، ص 147-150.

31 المرجع السابق، ص 150-152.

32 للمزيد عن المدرسة الاتابكية انظر المرجع السابق، ص 73 .

33 انظر تفاصيل ذلك الدور للنساء عند الخرزرجي، العقود اللؤلؤية، ج 1 ص 293 وغيرها .

34 المصدر السابق .

قائمة حتى نهاية الدولة الرسولية على الأقل[35] فإنّ الخزرجي يتوسع أكثر في الاوقاف التي أنشأتها أخته الدار الشمسي. ويصف الخزرجي الدار الشمسي بأنها "كانت ذات صدقة ومعروف ومآثرها كثيرة". ومن هذه المآثر إنشاؤها للمدرسة المعروفة بالشمسية في مدينة تعز، التي خصصت لها وقفاً جيداً يغطي نفقات الإمام والمؤذن والقيّم والمدرس والمعلم والطلبة وكذلك الأيتام الذين يتعلمون القرآن"[36]. وبالإضافة إلى ذلك فقد أنشأت أيضاً مدرسة أخرى في زبيد عرفت بالشمسية أيضاً، في جنوب سوق المعاصر، و"أوقفت عليها وقفاً جيداً يقوم بكفاية المرتبين فيها"[37]. وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذا الاهتمام بالعلم والوقف عليه كان يميز أخاها الملك المظفر، حيث أنشأ عدة مدارس منها المدرسة المظفرية في تعز[38].

وفي الواقع إن هذا الاهتمام بالعلم والوقف عليه لدى الأسرة الرسولية قد توطد أكثر مع ما قامت به أيضاً الست مريم زوجة الملك المظفر، التي يصفها الخزرجي بأنها "كانت من عقائل النساء". وقد أنشأت الست مريم عدة مدارس منها المدرسة السابقية في زبيد أو "مدرسة مريم" كما اشتهرت، التي يصفها الخزرجي بأنها: "من أحسن المدارس وضعاً". وقد "رتبت فيها إماما ومؤذناً وقيماً ومعلماً وأيتاماً يتعلمون القرآن ومدرساً للفقه على المذهب الشافعي"، و"أوقفت على الجميع وقفاً جيداً يقوم بكفايتهم"[39] وقد استمرت هذه المدرسة قائمة حتى بعد زوال الدولة الرسولية إذ ورد ذكرها لدى ابن الديبع سنة 920هـ/1514م[40]. وبالإضافة إلى ذلك فقد أنشأت في الحميراء من مغربة تعز مدرسة أخرى و"وقفت عليها وقفاً جيداً"، ومدرسة رابعة في ذي عقيب وكذلك دار للضيافة (دار مضيف) قبل وفاتها في جمادى الأولى 713 هـ/ آب- ايلول 1313م[41]. ومن هذه المدارس الاخيرة بقيت

---

35 عبد الرحمن بن علي بن الديبع، بغية المستفيد في تاريخ مدينة زبيد، تحقيق عبد الله الحبشي، صنعاء (مركز الدراسات والابحاث اليمني) 1979، ص 82 .

36 الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج 1 ص 293 .

37 المصدر السابق، ص 293 .

38 المصدر السابق، ج 1 ص 276 .

39 المصدر السابق، ج 1 ص 408 .

40 ابن الديبع، الفضل المزيد، ص 272 .

41 المصدر السابق، ج 1 ص 430 .

مدرسة الحميراء قائمة بعملها إلى نهاية الدولة الرسولية وبداية الدولة الطاهرية على الاقل[42].

وإلى جانب زوجة الملك المظفر وأخته فقد برزت بدورها في مجال الوقف ابنته نبيلة أيضاً، التي اشتهرت بمآثرها في اليمن حتى وفاتها في منتصف محرم 718هـ/ آذار 1318م، وقد وصفها المؤرخ الخزرجي بأنها كانت "امرأة صالحة تقية بارة بأهلها، محسنة إلى من لاذ بها"[43]. وقد أنشأت نبيلة أيضاً مدرسة في زبيد اشتهرت باسم الأشرفية، إلى الجنوب من مسجد الميلين، و"وقفت على الجميع أوقافاً تقوم بكفاية الكل"[44]. وكانت هذه من المدارس القليلة التي استمرت بعملها بعد زوال الدولة الرسولية، حيث أنها بقيت على الاقل حتى النصف الثاني للقرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي[45].

ويلاحظ هنا ان هذه المدرسة قد سميت على اسم أخيها عمر الذهب الذي تولى الحكم باسم الملك الاشرف خلال 494-496هـ / 1295-1297م. وكان هذا أيضاً يتميز بكونه " قد اشتغل بطلب العلم في حياة أبيه حتى برع في كثير من الفنون وشارك فيما سواها وله مصنفات كثيرة في علوم كثيرة". وقد بنى المدرسة الاشرفية في تعز و " رتّب فيها اماما ومؤذنا وقيما ومعلما وأيتاما يتعلمون القرآن ومدرسا للفقه على مذهب الشافعي وجماعة مثله يقرأون فيها"، و "أوقف على الجميع ما يقوم بكفايتهم"[46].

ومن أشهر النساء اللواتي برزن في الحياة العامة والعلمية خلال الدولة الرسولية لدينا جهة صلاح زوجة الملك المؤيد 696-721هـ/ 1296-1321م ووالدة الملك المجاهد 721-764هـ/ -1321 1363 م. وتجدر الإشارة هنا إلى أن المجاهد تولى الملك في سن الخامسة عشرة، وبسبب عدم خبرته في السياسة ارتكب أخطاء كبيرة أدت

---

42 السنيدي، االمدارس اليمنية، ص 87.

43 المصدر السابق، ج 1 ص 430 .

44 المصدر السابق، ج 1، ص 430 .

45 محي الدين عبد القادر العيدروسي، النور السافر عن أخبار القرن العاشر، بغداد (المكتبة العربية) 1934، ص 306 و 314 .

46 ابن أبي مخرمة، تاريخ ثغر عدن، ص 213-214 .

إلى تمرد الجند عليه وحبسه وتنصيب عمه المنصور ملكاً على اليمن في جمادى الآخرة 722هـ/ 1322م، ولكن تدخل والدته أدى إلى إطلاق سراحه وحبس عمه بدلاً منه[47]. وقد برز دور والدته بشكل خاص حين غاب عن اليمن حوالي السنة قضاها في مصر والكرك محبوساً خلال 751-752هـ/ 1350- 1351م[48]، حيث تولت والدته الحكم على أحسن حال إلى أن عاد وبقي في الحكم حتى وفاته في 24 جمادى الأولى 764هـ/ 11 آذار 1363م. وهكذا يقول المؤرخ الخزرجي عنها خلال توليها للحكم بأنها كانت "القائمة في البلاد فضبطت البلاد وجمعت العساكر ولم يكن في ذلك الوقت الحسن أحسن من تلك السنة خصباً وأماناً وعدلاً وإحساناً". والمهم بالنسبة للخزرجي أنها "كانت تحب العلماء والصلحاء وتكرمهم وتجلهم وتعظمهم وكانت تدور بيوت الناس تتفقدهم بالعطايا الوافرة". ولذلك حق عليها قول المتنبي:

ولو كان النساء كما ذكرنا لفضلت النساء على الرجال[49]

وفي الواقع يبدو من سلسلة المنشآت التي أوقفتها والدة الملك المجاهد أنها كانت أكبر واقفة في تاريخ الدولة الرسولية، وفي تاريخ اليمن الإسلامي، حيث بنت عدة مساجد وعدة مدارس وخانقاً وعدة سبل في أرجاء اليمن.

فقد بنت أولاً المدرسة الكبيرة المشهورة بالصلاحية في زبيد و"رتبت فيها إماماً ومؤذناً وقيماً ونازحاً للماء ومدرساً للشرع ومدرساً للحديث النبوي ومدرساً للنحو مطلبة في كل فن من الفنون المذكورة ومعلماً وأيتاماً"، و"أوقفت من خيار ما تملكه ما يقوم بكفاية الجميع"[50]. كما بنت مقابل المدرسة المذكورة خانقاه "رتبت فيها شيخاً ونقيباً وفقراء" و"أوقفت عليهم وقفاً جيداً حسناً"[51]. ويلاحظ هنا أن الخانقاه، أو "الخانقة" كما يسميها الخزرجي، كانت من المنشآت الجديدة

47 انظر تفاصيل ذلك لدى الخزرجي، العقود اللؤلؤية، و ابن أبي مخرمة، تاريخ ثغر عدن، ص 171 .

48 الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج 2 ص 87-88 و ابن أبي مخرمة، تاريخ ثغر عدن، ص 1790180 .

49 الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج 2 ص 118 .

50 المصدر السابق، ج 2 118 .

51 المصدر السابق، ج 2 ص 118 .

التي انتشرت في مصر مع الدولة الأيوبية[52]. والتي عرفت في اليمن مع الدولة الرسولية ذات الصلة الوثيقة بالدولة الأيوبية كما رأينا.

وبالإضافة إلى ذلك فقد بنت الواقفة مدرسة في قرية المسلب بوادي زبيد، و"جعلت فيها إماماً ومؤذناً ونازحاً ومعلماً وأيتاماً يتعلمون القرآن ومدرساً على مذهب الإمام الشافعي، ومدرساً على مذهب الإمام أبي حنيفة. وطلبة في المذهبين"[53].

ويلاحظ هنا أن الواقفة كانت حريصة على أن تكون المدرسة لطلبة المذهبين (الشافعي والحنفي) وهي تذكر هنا بالمذهب الحنفي لآل رسول الذي كانوا عليه عند قدومهم لليمن. وقد بنت الواقفة مدرسة ثالثة في قرية السلامة قرب تعز، و"رتبت فيها إماماً وخطيباً ومؤذناً وقيماً ونزّاحاً للماء ومعلماً وأيتاماً يتعلمون القرآن ومدرساً للفقه على مذهب الإمام الشافعي ومدرساً للحديث وطلبة مع كل مدرس"، و"أوقفت على الجميع أوقافاً جيدة نفيسة تقوم بكفايتهم وتزيد"[54]. ويلاحظ هنا في المدارس الثلاث التي أنشأتها الواقفة أنها كانت تتألف من مستويين مختلفين: من مدرسين وطلبة يتعلمون الفقه والحديث، ومن معلمين وأيتام يتعلمون القرآن الكريم فقط. وعلى الرغم من الاوقاف الكثيرة التي خصّصتها لهذه المدارس إلا أنه لم تستمر منها إلا المدرسة الصلاحية حتى نهاية الدولة الرسولية على الاقل، حيث كان من أواخر من درّس فيها المحدّث سليمان العلوي[55].

وإلى جانب المدارس المذكورة والخانقاه فقد أقامت الواقفة كذلك مسجدين، الأول في قرية التربية بوادي زبيد والثاني في محلة المحلية بمدينة تعز وفيما يتعلق بالمسجد الأول يذكر الخزرجي عن الواقفة أنها "رتبت فيه إماماً ومؤذناً وقيماً ومعلماً وأيتاماً ودرسة يقرأون القرآن"[56].

---

52 للمزيد عن ذلك انظر الخانقاه الاولى "سعيد السعداء" التي أنشأها صلاح الدين الايوبي في مصر : محمد محمد أمين، الاوقاف واالحياة الاجتماعية في مصر 648-923هـ/ 1250-1517 م، القاهرة (دار النهضة العربية) 1980، ص 204-205.

53 الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج 2 ص 119 .

54 المصدر السابق، ج 2 ص 119 .

55 شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، الضوء اللامع لاهل القرن التاسع، بيروت (دار مكتبة الحياة) د.ت، ج 1 ص 257 .

56 المصدر السابق، ج 2 ص 119 .

وقد برزت في مجال الوقف أيضاً ابنتها فاتن ماء السماء، أخت الملك المجاهد، التي تذكرها المصادر بلقب " جهة فاتن " و " الحرة فاتن ". فقد بنت " المدرسة الفاتنية" جنوب باب سهام في زبيد وأنشأت أمامها " السبيل الفاتني"، كما وأنشأت مسجدا في زبيد بين باب الشبارق والمربع. وقد تميزت فاتن عن غيرها بانشائها لـ " البر المؤيدي "(على اسم والدها) للانفاق على " الفقراء والمساكين ". وقد وصفها ابن الديبع بالقول إن "أفعالها في الخير كثيرة"[57].

وبالمقارنة مع ذلك نجد ان ابنها الملك المجاهد قد بزّ غيره في مجال الوقف. ولا يبدو هذا مستغربا اذا عرفنا ان ابن الدّيبع قد وصفه بأنه كان "أديبا، فقيها، شاعرا، مشاركا في عدة من فنون العلم، ويقال انه أعلم بني رسول"[58]. فقد بنى مدرسة في تعز، حيث دفن فيها و "مدرسة دار العدل" في تعز وثالثة " عظيمة الوقف، جيدة العمرة" في زبيد وغيرها[59] كما وأمر في 740هـ/ ببناء مدرسة أخرى في مكة المكرمة و "وقف عليها وقوفات جليلة في وادي زبيد ومخلاف المهم"[60].

وفي مثل هذه الاسرة لايعد من المستغرب أن تبادر زوجة الملك المجاهد " الحرة آمنة بنت الشيخ الصالح اسماعيل عبد الله الحلبي المعروف بالنقاش " إلى انشاء مسجد في زبيد عرف بـ " مسجد فوفلة" نسبة إلى المحلة التي بني فيها، كما واشتهر باسم " مسجد المملاح" نسبة إلى سوق الملح الذي كان في جواره. ولا يزال هذا المسجد قائما في زبيد، حيث أصبح الان بالقرب من السوق العام في حارة العلى[61].

ولدينا في الدولة الرسولية واقفة أخرى ذات شأن ألا وهي جهة الطواشي جمال الدين معتب بن عبد الله الأشرف زوجة الملك الأفضل 764-778هـ/ 1362-

---

57 ابن الدّيبع، الفضل المزيد، ص 100 .

58 المصدر السابق، 98 .

59 المصدر السابق، ص 98-99 .

60 يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد علي، غاية الاماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق د. سعيد عبد الفتاح عاشور ومراجعة د. مصطفى زيادة، القاهرة (دار الكاتب العربي) 1968، ج 2 ص 513 .

61 الخزرجي، زبيد، ص 79 .

1386م ووالدة الملك الأشرف الذي حكم اليمن خلال 778-803هـ/ 1386-1400م. ومن الجدير ذكره هنا ما سجّله المؤرخ المعاصر الخزرجي عن الأول منهما بأنه كان "عالماً مشاركاً في عدة من فنون العلم"[62]، وما قاله المؤرخ اللاحق ابن أبي مخرمة(توفي 947 هـ/ 1540م) بأنه كان " عارفا بالفقه والنحو واللغة والانساب والتواريخ" وانه بنى مدرسة بتعز وأخرى بمكة المكرمة و " رتب في كل مدرسة إماما ومؤذنا وقيما ومعلما وأيتاما يتعلمون القرآن ومدرسا في الفقه وجماعة من الطلبة يقرأون العلم" و "أوقف على الجميع وقفا جيدا يقوم بكفاية الجميع"[63]، وما يقوله القاضي الأكوع عن الثاني منهما بأنه "آخر سلاطين الدولة الرسولية العظام"[64]. ومن هنا لا يعد من المستغرب أن تكون الزوجة والوالدة على هذا النحو وأن تكون آخر الواقفات العظيمات في الدولة الرسولية.

ويصف المؤرخ الخزرجي الواقفة بأنها "كانت امرأة كثيرة الخير، تفعل المعروف كثيراً على يد غيرها خارجاً عما تتظاهر بفعله من أفعال البر"[65]. ويذكر الخزرجي من "المآثر الدينية" التي أقامتها الواقفة في مدينة تعز"المدرسة المعتبية"، والتي وجد فيها "إمام ومؤذن وقيم ومدرس ومعلم وأيتام يتعلمون القرآن"، بالإضافة إلى "عدة سبل في مقاطع الطرق يردها السارح والرائح"[66].وتجدر الاشارة هنا إلى ان هذه المدرسة لا تزال عامرة حتى الان، وهي تمثل النمط الثاني من المدارس الرسولية الذي يتكون عادة من قبة كبيرة وجناحين[67].

وبسبب مآثرها وأوقافها الكثيرة فقد عمّ الحزن عليها عند وفاتها في 18 صفر 796هـ/ 23 كانون الاول 1393م ورثاها جماعة من الشعراء الذين أثبت أسماءهم الخزرجي، كما أثبت في كتابه قصيدة طويلة له في رثائها يقول فيها :

---

62 الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج 2 ص 158 .

63 ابن أبي مخرمة، تاريخ ثغر عدن، ص 139 .

64 القاضي اسماعيل بن علي الاكوع، الدولة االرسولية في اليمن 626-858هـ/1228-1454م، عدن (جامعة عدن) 2003، ص 48 .

65 الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج 2 ص 252-253 .

66 المصدر السابق، ج 2 ص 253 .

67 أحمد محمد هاشم، من معالم الحضارة في الجمهورية اليمنية، الرباط (الاسيسكو) 1999، ص 142 .

بكتها السما والارض يوم وفاتها وأمسى سحاب الافق أدمعه تسري[68]

ولدينا في أواخر الدولة الرسولية واقفة أخرى ذات شأن ألا وهي زوجة الملك الناصر(803 827 هـ/ 1401-1426م) "الحرة أم الملوك جهة الطواشي جمال الدين فرحان ". ويصف الديبع الملك الناصر بأنه " كان محبوبا عند الناس لفعله الخير"[69]. وقد برزت في عهده زوجته التي يمكن اعتبارها آخر الواقفات العظيمات في الدولة الرسولية. فقد بنت " المدرسة الفرحانية" في زبيد التي لاتزال قائمة، والتي تعد من أكبر وأهم المدارس الباقية إلى الآن من دولة بني رسول نظراً لما تتضمنه من عناصر معمارية مهمة و نقوش كتابية وزخرفية خاصة في المسجد التابع لها[70].

---

68 الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج 2 ص 254 .

69 ابن الدّيبع، الفضل المزيد، ص 108 .

70 المصدر السابق، ص 108. وانظر الوصف المفصل لها في حالتها الراهنة : السنيدي، المدارس اليمنية، ص 131-136.

الاستغلال البريطاني لفكرة الخلافة في الهند خلال القرن التاسع عشر

أ. إسمى مهيبل(*)

تقوت المطالبة العثمانية بالخلافة في القرن التاسع عشر بسبب الانتقال المستمر للمقاطعات العثمانية التي تضم شعوبا مسلمة إلى حكام غير مسلمين، وظهور الوحدة الإسلامية في وجه التوسع الاستعماري للغرب على حساب " دار الإسلام."(1)

وكان الحفاظ على السلطة الدينية هو الخطوة الأولى في محاولة استرجاع السلطات الدنيوية - السياسة للخليفة، وبدا أنه من الممكن أن يمتد نداء الوحدة الإسلامية إلى المسلمين الذين يعيشون في المستعمرات البريطانية والفرنسية والروسية، ولذلك كانت الخلافة الأداة الوحيدة والأكثر فاعلية لتحقيق ذلك.(2)

وهكذا أصبح السلطان العثماني في القرن التاسع عشر يعلن في الداخل والخارج أكثر من أي وقت مضى بأنه " الخليفة "، ويستخدم لقب وصلاحيات الخلافة بالقدر الذي كانت قد أكدته المواثيق الدولية منذ إبرام معاهدة كوجوك قينارجه عام 1774 بين روسيا والدولة العثمانية، حين أعلنت أن السلطان العثماني هو خليفة المسلمين، ورأس مؤسسة الخلافة، ومن ثمة أصبح يستخدم هذا اللقب وتلك الصلاحيات في علاقاته مع المسلمين في جاوا والهند وروسيا وشمال إفريقيا وغربها.(3)

---

* جامعة الجزائر- 2، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ

[1] Aziz, Ahmed, *Studies in Islamic Culture in the Indian Environment*, (Oxford: Clarendon Press, 1964), p 36.

[2] Mim Kemal Öke, *The Turkish War of independence and the Independence Struggle of the South Asian Muslims, The Khalifat Movement (1919-1924)*, trc: Oya Akgönenç Mughisuddin, (Ankara, Ministry of Culture, 1997),p. 58.

[3] اعتبر هذا المذهب بمثابة ضمانة لحفظ الهدوء في مستعمرات بريطانيا الإسلامية، وقد هاجم السيد جمال الدين الأفغاني في مقالاته " بالعروة الوثقى " أصحاب هذا المذهب، معتبرا أنهم خالفوا به قواعد مثبتة في الشريعة الإسلامية، ومؤكدا على أن المذهب الشرعي يقضي بأن على المسلمين واجبا دينيا بأن يستعيدوا أي منطقة أخذت منهم، « وهو فرض عين على كل واحد منهم، إن لم يقم قوم بالحماية

أدركت بريطانيا الفوائد العظيمة التي يمكن أن تحققها من وراء مصادقة السلاطين العثمانيين أصحاب الخلافة في ذلك العهد، فاستعانت بهم على توطيد سيادتها وتوسيع دائرة فتوحاتها في آسيا؛ ولذلك لم تعترض على مطالبة السلطان العثماني بالخلافة واستخدامه لصلاحياتها في علاقته مع شعوب مستعمراتها الإسلامية، فقد اعتقدت بأن ذلك سيضمن خضوعهم لحكمها، ويجعل ممتلكاتها (المستعمرات) مستثناة من دار الحرب.[4]

ذلك أن النظرية السياسية الإسلامية كانت - وهي تتأمل في عيش المسلمين تحت حكم غير مسلم - قد قسمت العالم إلى قسمين: دار الإسلام ودار الحرب، على أنه ينبغي أن تختفي في النهاية دار الحرب داخل دار الإسلام، فيصبح العالم كله مسلما، وهو ما يفرض على المسلمين واجب نشر رسالة الإسلام وتعاليم القرآن في حدود دار الكفر، ويلزمهم بواجب الجهاد دفاعا عن حدود دار الإسلام من أي اعتداء يمكن أن يصدر من " دار الحرب"، ولكن الفصل فيما إذا كان الجهاد يمكن أن يقوم على دار الحرب وبدون أي مسبب لذلك من عدوان على دار الإسلام، كان يخضع لاحتمالية النجاح من أجل تبرير أي حركة كهذه، لأنه ينبغي الحفاظ على حياة المسلمين من الهدر.[5]

كانت هذه المسألة ضرورية وأكثر إلحاحا في الهند، حيث تعيش أقلية بعدد كبير جدا من المسلمين تحت حكم الانكليز، وأدت إلى إنشاء المذهب القائل بأن أي دولة تكون فيها فروض الإسلام محمية يجب أن تعتبر بأنها دار الإسلام، وأن الجهاد داخل حدودها محرم[6]، ولكن لم يكن ذلك كافيا لعدم الشك فيما إذا

عن حوزتهم كان على الجميع أعظم الآثام »، حتى إذا ما عجزوا عن تحقيق ذلك، وجبت عليهم الهجرة من تلك البلاد التي تصبح – نتيجة احتلال غير المسلمين لها – دار حرب، إلى دار الإسلام، وحينئذ أيضاً تكون مقاومة الاحتلال غير الإسلامي واجبا ليس فقط على المسلمين المنتسبين إلى ذلك الإقليم، بل على كافة المسلمين في جميع الأقاليم. (انظر: العروة الوثقى، « انحطاط المسلمين وسكونهم وسبب ذلك »– و « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا »، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٨٣ ، ص ٧٠، ٧١).

[4] أوجين يونغ، استبعاد الإسلام، ج 2، (دم: دن، 1928)، ص 152 ; Öke, op. cit., p. 159.

[5] Duncan, B. Macdonald, Development of Muslim Theology (Jurisprudence and Constitutional théologie, (London) 1903, p. 55.

[6] اعتبر هذا المذهب بمثابة ضمانة لحفظ الهدوء في مستعمرات بريطانيا الإسلامية، وقد هاجم السيد جمال الدين الأفغاني في مقالاته " بالعروة الوثقى " أصحاب هذا المذهب، معتبرا أنهم خالفوا به قواعد مثبتة في الشريعة الإسلامية، ومؤكدا على أن المذهب الشرعي يقضي بأن على المسلمين واجبا دينيا

كان هذا المذهب سيعيق الهنود المسلمين، وإلى أي مدى يمكن أن يحدث ذلك إذا قدمت فرصة للجهاد نفسها في الواقع. [7]

ولذلك اعتقد البريطانيون بأنهم طالما يبقون على علاقة طيبة مع السلطان - الخليفة، فسيكون بمقدورهم الاعتماد على أن يمارسوا سيطرتهم على المسلمين الهنود بوساطة استانبول، واعتقد البريطانيون أيضاً أنه عن طريق السماح للسلطان بأن يدعي القيادة الروحية على شعوب مستعمراتهم من المسلمين، فإن ذلك سيمنحهم إحساسا بالشرعية ويحفظ لهم ممتلكاتهم في المستعمرات[8]، وذلك لأنه «إذا كان مقدرا للحكم الإنكليزي أن يصبح مسلما فإن المسلمين سيتسابقون نحوه»[9].

وكما يبدو فقد تعرف البريطانيون أيضاً على الأخطار التي يمكن أن تنجم عن إعادة تأكيد سلطة الخليفة على المستوى الدولي، وتجاوز سلطته حدود الإمبراطورية العثمانية، كما كانوا متخوفين من قدرة الخليفة على خلق اضطرابات سياسية بين المسلمين في المستعمرات ولكن وبغض النظر عن حقيقة أنهم أدركوا ما يمكن أن تجر سياسة السلطان العثماني المهيب بجميع المسلمين الالتفاف حول عرشه باعتباره خليفة، من مخاطر على إمبراطوريتهم الاستعمارية المتأصلة، فقد بدا أنهم مستعدين لتحمل هذه المخاطر مؤقتا.[10]

كانت هناك علامتان للسيادة على المسلمين إحداهما سك اسم الحاكم على العملة، والأخرى الدعاء له في خطبة الجمعة، أما في الهند فكانت العادة أن يتم الدعاء للحاكم الحالي بدون ذكر اسمه، ولكن تسللت عادة في بعض المساجد حيث أصبح الدعاء للسلطان العثماني على أنه الخليفة، فقد قبل المفكرون

بأن يستعيدوا أي منطقة أخذت منهم، « وهو فرض عين على كل واحد منهم، إن لم يقم قوم بالحماية عن حوزتهم كان على الجميع أعظم الآثام »، حتى إذا ما عجزوا عن تحقيق ذلك، وجبت عليهم الهجرة من تلك البلاد التي تصبح - نتيجة احتلال غير المسلمين لها - دار حرب، إلى دار الإسلام، وحينئذ أيضاً تكون مقاومة الاحتلال غير الإسلامي واجبا ليس فقط على المسلمين المنتسبين إلى ذلك الإقليم، بل على كافة المسلمين في جميع الأقاليم. (انظر: العروة الوثقى، «انحطاط المسلمين وسكونهم وسبب ذلك»؛ و «واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا»، بيروت: دار الكتاب العربي، 1983 ، ص 70، 71).

7 Macdonald, op. cit., pp. 55, 56.

8 Öke, op. cit., p. 159.

9 Macdonald, op. cit., p. 58.

10 Öke, p. 159.

الهنود المسلمون في النصف الثاني من القرن التاسع عشر دعوى السلطان العثماني عبد العزيز (1861-1876) بأنه الخليفة العالمي للإسلام، فكان بذلك السلطان الأول الذي قرئ اسمه في خطبة الجمعة في المساجد الهندية، وإذ لا يمكن الجزم بأن الحكومة البريطانية شجعت ذلك، فإنه من المؤكد أنها غضت الطرف عنه ولم تشغل نفسها كثيرا بهذه الأمور، حتى سيطرت هذه العادة وانتشرت بشكل ملحوظ.[11]

وفي أثناء حرب القرم (1853-1856)، ضَخّم الإنكليز هم أنفسهم من حجم تركيا أمام الهنود[12]، واكتسبت انكلترا من هذه الحرب ازدياد نفوذها في الأستانة فاستغلته في سبيل مصالحها، ففي عام 1856 نشبت ثورة سيباي الشهيرة في الهند ضد الإنكليز، فاستغلت بريطانيا ماكانت تدعيه من صداقة السلطان العثماني عبد المجيد (1839-1861)، وماكان يتمتع به من النفود على المسلمين في الهند، واستصدرت منه فتوى يدعو فيها مسلمي الهند إلى الوفاق مع الإنكليز، ويأمرهم بالركون إلى النظام والطاعة لحكومة صديقته جلالة الملكة فيكتوريا ملكة بريطانيا[13].

يقول مصطفى كامل في كتابه «المسألة الشرقية»

«ومعلوم أن المسلمين في الهند كلهم يحترمون خليفة الإسلام ويجلونه أعظم إجلال، فلما وصل إليهم منشور جلالته وضعوه على رؤوسهم وعملوا بما أمرهم به، فألقوا أسلحتهم، وانتهت بذلك الثورة وتوطدت سلطة الإنكليز في الهند»[14].

ويرى مصطفى كامل أن الهنود كادوا يطردون في ذلك الوقت الانكليز من بلادهم، لولا تدخل السلطان عبد المجيد، وإصداره لذلك المنشور، معتبرا أنه إذا كان الانكليز قد عاشوا طويلا في الهند آمنين شر المسلمين، فما الفضل في

---

11 Macdonald, p. 56; Aziz Ahmad, p. 63.

12 Aziz Ahmed, p. 63.

13 مصطفى كامل، المسألة الشرقية، ج(1)، (مصر: مطبعة اللواء، 1909)، ص207، 21؛ حميد عنايت، الفكر السياسي الإسلامي المعاصر، تر: ابراهيم الدسوقي شتا، (القاهرة: مكتبة مدبولي، د ت)، ص124.

14 المسألة الشرقية، ج(1)، ص207.

ذلك إلا للدولة العلية، ولا يخفى ما يتضمنه رأيه هذا من مبالغة واضحة حين جعل الهدوء في المستعمرات البريطانية في الشرق منوطا بنفوذ السلطان العثماني على المسلمين هناك وحسب.

حقيقة أن علاقة مسلمي الهند بالخلافة العثمانية ما فتئت تتوطد باستمرار خلال القرن التاسع عشر، حتى أصبحت الهند وإلى جوارها روسيا كذلك بأقليات إسلامية كبيرة العدد من أكثر المراكز نشاطاً في تأييد السلطان العثماني، ولكن توطيد سلطة الانكليز في مستعمراتهم إنما يعزى بشكل أهم إلى ما تفننوا به من ضروب السياسة وأساليبها[15]، ولا يعدو حملهم للسلطان العثماني على استصدار فتوى يدعو فيها المسلمين في الهند إلى الوفاق مع الانكليز إلا خطوة في ذلك الطريق.

ويبدو أن عناية مصطفى كامل بفضح سياسة إنجلترا وإظهار ما كان يتمتع به السلطان العثماني من مكانة لدى مسلمي الهند جعله لا يلتفت إلى حقيقة أن السلطان أساء استخدام نفوذه المعنوي كخليفة حين وجهه لضمان ركون المسلمين الهنود وانصياعهم للحكم الانكليزي.

نعم، كان السلطان العثماني مدفوعا بالرغبة في تقوية موقف إمبراطوريته والدفاع عنها ضد الخطر الروسي أثناء حرب القرم، وحاول استرضاء بريطانيا لوقوفها إلى جانبه في هذه الحرب، ولكنه برهن على استغلال منصب الخلافة الذي يطالب به، ويسعى لأن تتجاوز السلطة الروحية التي يكفلها له حدود إمبراطوريته لتشمل كافة المسلمين في العالم، لتحقيق أهداف سياسية إقليمية لا تتجاوز حدود ما تبقى تحت يديه من ممتلكات، وفي سبيل الحفاظ عليها فحسب.

لقد كان السلاطين العثمانيون على إيمانهم بقوة سلاح الخلافة الذي بين أيديهم، في مواجهة هدير التوسع الغربي على أقطار العالم الإسلامي، يرون أن ظروف القرن التاسع عشر لم تكن تسمح بالكثير مما كان يبدو ضروريا،

---

[15] للسيد جمال الدين الأفغاني مقال مهم شرح فيه بالتفصيل أساليب الإنجليز القائمة على المكر وبث الدسائس والفرقة بين شعوب مستعمراتهم لإخضاعهم، حيث تمكنوا بسلاح الخديعة والحيلة أن يملكوا نحو ثلث العالم دون أن يسفك من دمائهم ويصرف من أموالهم إلا كنسبة القطرة إلى البحار والدرهم إلى المليار. (للمزيد أنظر حديثه عن الهند في: خاطرات جمال الدين الأفغاني، لمحمد باشا المخزومي، (بيروت: دار الحقيقة، 1980)، ص241ومابعدها.

بحيث لم يستغلوا كما ينبغي نفوذ الحركات الدينية التي كانت آخذة في الصعود متخذة جانب السلطان، وهي التي بدأت تؤدي دورا في إيجاد تكتل إسلامي يمكن من خلاله مواجهة التوسع الغربي.

لقد تفطن الأفغاني - بخبرته الواسعة بالشؤون الشرقية وحقيقة الاستعمار الانجليزي - ونبه إلى الخطأ الذي ارتكبه العثمانيون جراء خشيتهم معاداة انجلترا إلى الحد الذي منعهم من التقدير الصحيح لمقدار قوتها، صحيح أن لها سلطة على نحو مائتين وثمانين مليونا من شعوب مستعمراتها في الشرق، ولكنها لم تكن تملك من قوة تخضعهم بها لحكمها إلا خمسون ألف جندي انكليزي[16]، ولذلك فإن العثمانيين - في اعتقاده - سقطوا في " الوهم " الذي منعهم من تسخير ما تيسر لهم من أسباب القوة للتخلص من تسلط الانجليز وخطرهم على إمبراطوريتهم:

«والعثمانيون أعظم الدول خطأ إذ ينظرون إلى دولة الإنجليز..، من حيث أن انكلترا مائتين وثمانين مليونا من النفوس،فيظنون لهذا النظر أن معارضة هذه الدولة ربما تجلب الضرر، وليتهم مدوا أنظارهم إلى ما وراء ذلك ليتبين لهم أن هذه الملايين الكثيرة لا ينبغي أن تحسب في قوة انكلترا، وإنما هي في الحقيقة قوة لأعدائها عليها، وهي في ارتقاب الفرص لخلع طاعتها، خصوصا ثمانين مليونا من المسلمين في حكومة انكلترا، يعدون الدولة العثمانية قبلة لهم وملاذا يلجئون إليه، وهم أول قوم حربيين في الأقطار الهندية »[17]

وإذ لم يستغل العثمانيون تلك القوة، فقد ساعدوا - وإن كان دون قصد - على استغلال الانكليز لها استغلالا مكنهم من توطيد نفوذهم على مسلمي الهند الذين كانوا يتطلعون للعثمانيين.

«لو علم العثمانيون أن دولة انكلترا إنما تستميل المسلمين في الهند بكونها حليفة الدولة العثمانية ونصيرة لها، واستعملوا تلك السلطة استعمال العقلاء، أولي الحزم لما صبروا وتجرعوا مرارة الصبر على تحكمات الانجليز وحيفهم في أعمالهم، وتعديهم على حقوق السلطان »[18].

---

16 خاطرات جمال الدين الأفغاني، المصدر السابق، ص 258.

17 المصدر والصفحة نفسهما.

18 نفسه.

لكن بريطانيا غيرت سياستها اثر حرب 1877-1878، فتخلت منذئذ عن سياستها التقليدية الخاصة بالمحافظة على تمامية أملاك الدولة العثمانية، فبعد أن حصلت من السلطان على ثمن دعمها له في هذه الحرب بتنازله لها عن جزيرة قبرص بمقتضى اتفاق اسطنبول المؤرخ في 4 جوان 1878، بدأت أعمال مؤتمر موسع في برلين بدعوى من بسمارك[19]، بهدف إعادة فحص ملف المسألة الشرقية[20].

كان مؤتمر برلين من المعالم البارزة لتدهور الإمبراطورية العثمانية حيث أرغمت على التنازل عن مساحات واسعة من أملاكها، فدفع ذلك كل من فرنسا وبريطانيا إلى التخلي عن فكرة منع تجزئة الإمبراطورية العثمانية ولم يمض وقت طويل حتى احتلت فرنسا تونس في 1881، بدعوى أنها تعوض نفسها عن احتلال بريطانيا لقبرص[21]، واحتلت بريطانيا مصر في 1882.

كان الاحتلال الإنجليزي لمصر سنة 1882 بداية عهد جديد من العلاقات الإنجليزية - العثمانية، فمنذ ذلك الحين تأكد للحكومة العثمانية أن إنجلترا خداعة في ودها، وأن ضررها على من تتظاهر لهم بالصداقة أشد من ضررها على أعدائها الظاهرين، فقد استخلصت قبرص من السلطان مقابل مساعدتها في مؤتمر برلين ولكنها لم تقدم أي دعم للدولة العثمانية، بل إن هذه الأخيرة فقدت

---

[19] كان من حرص مستشار ألمانيا أوتوفون بسمارك على السلام الأوروبي وخوفه من أن يؤدي تصدي بريطانيا لروسيا إلى نشوب حرب أوروبية عامة تهدد الإتحاد الألماني الناشئ، أنه دعا الدول العظمى إلى مؤتمر ينعقد في برلين لمراجعة صلح سان ستيفانو وتسوية نتائج الحرب الروسية- العثمانية.

[20] فرانسوا دومون، النزع الأخير: الدولة العثمانية بعد معاهدة برلين(1878-1909)، ضمن كتاب: تاريخ الدولة العثمانية، ج(2)، إشراف: روبير مانتران، تر: بشير السباعي،(القاهرة:دار الفكر للدراسات، 1993)، ص157.

[21] ما إن أعلن في برلين عن الاتفاق الخاص بقبرص حتى ثارت ثائرة الوفد الفرنسي، وكان لابد من إرضائه للوصول بسفينة المؤتمر إلى بر الأمان، وكان بسمارك وهو يشاهد سرعة نهوض فرنسا من كبوتها في السنوات التي أعقبت سنة 1871، يرغب في وضع أهداف جديدة نصب أعين زعمائها تبعدهم عن فكرة الانتقام التي كانت مسيطرة على عقول الفرنسيين، فعرض تونس على فرنسا، محاولا من جهة أخرى إصلاح ما بين الإنجليز والفرنسيين، وقد أعلن اللورد سالسبوري من جهته إطلاق يد فرنسا في تونس بلا معارضة فرنسية.(دائرة المعارف الإسلامية، مادة (تونس)،مج(6)، تعر:أحمد الشنتناوي وآخرون، (د م: د ن، د ت)، ص110، 109.

في هذا المؤتمر ما لم تفقده في أي مؤتمر آخر قط.[22]

وأدرك السلطان عبد الحميد أيضاً أن الإنجليز لا صديق لهم، وأنهم أكبر أعداء للإمبراطورية، وأن صداقتهم القديمة لم تكن إلا حجابا ستروا خلفه عداوتهم لإمبراطوريته وأطماعهم فيها[23].

أما في الهند فقد أدت حرب 1877 - 1878 إلى تحرر إجماع أهل الفكر من الهنود المسلمين من " الوهم " الذي وقع فيه كثير منهم بسبب امتنانه للبريطانيين، للمساعدة التي اعتقدوا أنهم قدموها للأتراك لاسيما في حرب القرم (1853-1856)، وذلك بسبب نقص العون البريطاني الفعال للأتراك ضد الروس، وسياسة الحزب الليبرالي البريطاني والمؤامرات السياسية التي سبقت ورافقت انعقاد مؤتمر برلين، وعندئذ واجه المسلمون الهنود خيارا مابين ولائهم للبريطانيين من جهة وولائهم للخليفة، وتعاطفهم مع دار الإسلام في تراجعها من جهة أخرى.[24]

عند هذه النقطة برزت للبريطانيين بوضوح كبير أهمية بعض الآراء التي تُشبّه السلطان - باعتباره خليفة الإسلام - بالبابا باعتباره الرئيس الروحي للمسيحيين الكاثوليك، وكان هذا الرأي قد ظهر لأول مرة في كتاب دوسون الشهير[25]: "Tableau Générale de l'Empire Ottoman" حين نشر في باريس سنة

---

22 مصطفى كامل، المسألة الشرقية، ج(1)، ص22.

23 المصدر نفسه، ص23.

24 Aziz Ahmad, op.cit., pp. 60,61.

25 هو السويدي مرادجة دوسون، ولد في31جويلية 1740 بإستانبول، كان أبواه مترجمين بالقنصلية السويدية بإزمير، بدأت مسيرته السياسية كمترجم بالسفارة السويدية باستانبول من سنة 1763 إلى 1782، انتقل بعدها إلى السفارة السويدية بباريس من 1784 إلى 1791، ثم إلى السفارة السويدية بفيينا (1791- 1792)، وفي عام 1795 عين على رأس البعثة السويدية باستانبول كسفير لبلاده لدى الدولة العثمانية، وبقي فيها إلى أن تم تعويضه سنة 1799، فعاد إلى فرنسا وأقام فيها؛ تمتع دوسون بمكانة خاصة لدى كل المسؤولين العثمانيين، وقام بترجمة كتاب إبراهيم الحلبي "ملتقى الأبحر"، وسمح له تكوينه الثقافي الشرقي ومهنته الدبلوماسية أن يكتب عن التشريع الإسلامي بكامله، شاملا في دراسته العقيدة والثقافة والقوانين الأخلاقية والمدنية والسياسية، وقسم كتابه: "Tableau General de l'empire Ottoman" إلى قسمين متميزين تناول في أحدهما التشريعات الإسلامية، وفي الثاني تاريخ الدولة العثمانية.(للمزيد أنظر: عبد الجليل التميمي، "المؤرخ الدبلوماسي مرادجة دوسن وكتابه عن: النظام الإسلامي الشامل والدولة العثمانية في أواخر القرن الثامن عشر"، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، ع(21)، (زغوان: منشورات التميمي، 2001)، ص147-157.

1787، حيث تكلم عن " سلطة البابا الكهنوتية "، ووصف السلطان بأنَه " بابا المسلمين"[26].

أما ظروف نشأة هذا الربط بين سلطة الخليفة الروحية وتلك السلطة التي كانت للبابا في أوروبا القرون الوسطى فقد شرحها لويس ماسينيون في مقالة له حول الخلافة بقوله:

"إن هذا الاختلاق المثير للفضول، ماهو في حقيقته إلا حكاية خيالية شاعت شعبيا في الغرب منذ نهاية القرن الثامن عشر بفضل كتابات عدد من الكتاب معظمهم من المسيحيين الشرقيين، بدءا من الأرمني Mouradgea D'ohsson (1788) إلى الأرثذكسي Savas Pacha (1898)، وإذ اندمجت بنية العالم الإسلامي في بنية المسيحية القروسطية[27]، وتماثل الإجماع عند علماء السنة مع المجامع المسكونية، وخلافة اسطمبول مع إطاعة بابا روما، أوصل هذا التصور، كما هي الحال لدى بارثولد Barthold ولدى نللينو Nallino اللذين قدما حكاية بشكل مثير للإعجاب إلى إدخال فكرة السلطة الروحية، Pouvoir Spirituel للسلطان العثماني (كخليفة) في القاموس الدبلوماسي الدولي"[28].

لقد حاول البعض أن يبرهن على هذه الفكرة تاريخيا، معتبرا أن تطور البابوية في أوروبا جرى بشكل مشابه- إلى حد بعيد- لتطور نظام الخلافة في الإسلام، وهو ما توصل إليه ماكدونالد[29] بعد عقد المقارنة التالية:

"إذا استطعنا أن نتخيل أن خطط جريجوري السابع في أوروبا قد نفذت، وأن البابا أصبح الرأس الروحي والدنيوي، فإن موقفا كهذا سيكون مشابها لذلك الذي نشأ في عالم الإسلام في بدايته الأولى، عندما حكمته سلالة الأمويين، وفرضت عليه سيادتها الروحية والدنيوية الواحدة من سمرقند إلى إسبانيا، عندها نستطيع أن نتخيل كيف أن نسيجا ضخما لنظام إمبراطوري كهذا تفتت بسبب وزنه، وتحت

---

26 Thomas, Arnold, *The Caliphate*, (Oxford: Clarendon Press, 1924), p. 10.

27 نسبة إلى القرون الوسطى.

28 Louis, Massignon, *Introduction à l'etude des Rèvendications Islamique*, (1920), in: opera minora, texte recueillis par:

وجيه كوثراني، الدولة والخلافة في الخطاب العربي إبان الثورة الكمالية في تركيا، (بيروت:دار الطليعة، 1996)، ص42، 41.

29 Duncan Black Macdonald (1863-1943).

صراع الحصول على الشرعية قامت حركة المناهضة للبابوية وبدأ الانقسام العظيم والتفكك السريع، وتمردت المقاطعات، وخرجت عن كل بابوية منافسة،كما قامت ممالك سعى حكامها لأن يقلدهم البابا مناصب رفيعة، وأصبحت دول الكنيسة نفسها في الأخير تحت حكم أحد هؤلاء الأمراء وأصبح البابا نفسه حبيس قصره الخاص.

"أما سيادة الخليفة فلم تكن أكثر من تلك التي للبابا ، فقد كانت خيالا قانونيا وسيادة صورية فقط، لقد فكر الأمراء المسلمون بأن يسعوا للحصول على الاعتراف الروحي منه بالضبط كما وجد نابوليون الأول أنه من الحكمة أن يجعل البابا بيوس السابع يتوَجه ملكا.

"ولم يمض وقت طويل حتى ضربت موجة قوية اكتسحت كل هذه الأشكال، وقد حلت مع المغول تحت قيادة هولاكو الذي عبر بعد تحطيم الحشاشين إلى بغداد فدمرها وقضى على الخلافة، ففي 656 حين احتلت المدينة وحلت نهاية العباسيين، هرب عم من أعمام الخليفة إلى مصر حيث استقبله السلطان المملوكي ومنحه بلاطا روحيا واعترافا دينيا ، فظن أنه من الجيد أن تكون لديه خلافة خاصة يستخدمها في إضفاء الشرعية، حيث كان للقب الخليفة قيمة كبيرة"[30].

أما أرنولد الذي نقل هذه الفكرة عن دوسون فقد اعتبر أن هذا الأخير لم يبتكرها ، فقد عثر على صدى لها في كتابات المسلمين أنفسهم:

"فعندما تحدث الجغرافي ياقوت الحموي عن روما ذكر أنها المدينة التي يسكن فيها البابا الذي يطيعه الفرنجة، وهو لهم بمنزلة الإمام، فإذا خالفه أحد منهم كان عاصيا عندهم ومخطئا يستحق النفي والطرد والقتل، وسمى المؤرخ ابن الجوزي البابا "خليفة الفرنجة"، كما وصف ابن خلدون (1332-1406) البابا بأنه "خليفة المسيح"[31].

كان لهذه الفكرة أهميتها بالنسبة للحكم الإنجليزي في المستعمرات الإسلامية، وفي الهند على وجه الخصوص حيث القبول الواسع لمطالبة السلطان العثماني بالخلافة بين المسلمين، كانت محاولة بريطانيا "خلق ارتباك متعمد حول دور الخلافة وتشبيهها بالبابوية"[32]، وسيلة للحد من قدرة الخليفة على خلق

30 Macdonald, *Devlopment of Muslim Thèologie*, pp. 52-54.

31 Arnold, op., cit, p. 104.

32 Ök, op., cit, p. 159.

اضطرابات سياسية في الهند.

لم يكن توجه بريطانيا المؤكد على التفريق بين سلطة الخليفة الروحية وسلطته الدنيوية- السياسية وليد هذه المرحلة الجديدة من علاقات بريطانيا بالسلطان، حين طرحت سياسة المهادنة وكفت عن الادعاء بكونها الصديق الوفي والحليف القوي لإمبراطوريته، فقد كان البريطانيون قد تعرفوا - قبل ذلك بوقت بعيد- على الأخطار الناجمة عن إعادة تأكيد سلطة الخليفة على المستوى الدولي، ولكنهم سبق وأبدوا استعدادهم - كما رأيناه- لتحمُل هذه المخاطر مؤقتا، وكان يدفعهم إلى ذلك ثقتهم بأن التزامهم جانب السلطان وقتئذ يمكن أن يكفل - إلى حد كبير- درأ مثل هذه المخاطر عن مستعمراتهم الإسلامية.

ولكن الإنجليز أدركوا أن ذلك لم يكن كافيا - حتى في فترة المهادنة- ما لم يدعم بأساس فكري مقبول يمكنه التقليل من وطأة تلك المخاطر المحتملة عليهم، ولم يكن من الممكن أن يكون الأساس الفكري وقتئذ هو الطعن في شرعية خلافة آل عثمان - كما ستؤول إليه الحال مع مطلع القرن العشرين حين ستصل علاقة بريطانيا بالدولة العثمانية إلى القطيعة النهائية وتحلُ نهاية العثمانيين- بقدر ما وجدوا في فكرة سيادة الخليفة الروحية وتشبيهها بفكرة سيادة البابا أساسا فكريا مقبولا، على الرغم مما تنطوي عليه هذه الأفكار من مناقضة ليس فقط لآراء فقهاء الإسلام بل أيضاً لمصالح الدول الأوروبية التي شجعتها أيضاً.

أما بعد انكشاف عداوة بريطانيا وحقيقة نواياها وأطماعها في الإمبراطورية العثمانية خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وبشكل أدق منذ أقدمت على احتلال مصر عام 1882، فقد أصبحت مثل هذه الأفكار التي تماثل خلافة سلطان اسطنبول مع إطاعة بابا روما أكثر أهمية بالنسبة للمصالح البريطانية، وبشكل مماثل لمصالح القوى الاستعمارية الأخرى في مستعمراتها الإسلامية، حيث كان بوسعها أن "تشجع المسلمين المقيمين في المستعمرات الأوروبية أن يقسموا ولاءهم بين السلطات الدنيوية التي تفرضها الأمم المسيحية والسلطة الروحية للخليفة"[33].

وضرب الهنود المسلمون أفضل مثال لهذا الموقف، فبينما اعترف مسلمو جنوب الهند بالسلطة الدنيوية والسياسية للحاكم البريطاني، وعن طريقه خضوعهم

33 Ibid., p. 158.

لسلطة لندن، إلا أنهم أعلنوا صلتهم الدينية والروحية وولائهم للسلطان العثماني باعتباره خليفة، وعن طريقه الولاء لاستانبول باعتبارها العاصمة الدينية للعالم الإسلامي[34].

أما السلطان عبد الحميد الثاني (1876-1909)، فعلى الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلها للتأكد من ولاء المسلمين خارج حدود إمبراطوريته وتعزيز مركزه كخليفة على جميع المسلمين في العالم، إلا أنه كان يعتقد أن توحيد مسلمي العالم كله حول الخلافة كان هدفا يتجاوز كثيرا الإمكانات التي يتمتع بها، ولذلك فقد تعامل - خلال فترة حكمه- بحذر شديد مع هذه المسألة بحيث ركز فقط على وظيفته الروحية كخليفة للعالم الإسلامي، ورغم ذلك ظل مستشاروه يشعرون بوجود المخاطر السياسية الخفية باستمرار، حيث تمكن من كسب إجلال الملايين من المسلمين المقيمين خارج مملكته والتابعين لبريطانيا وفرنسا وروسيا واستغلاله لتقوية مركز الدولة العثمانية ومنع تهديد الدول الاستعمارية لها عن طريق تخويفها باستمرار من احتمالية القيام بعمل من شأنه أن يهدد استقرار حكمها في مستعمراتها الإسلامية، وفي النتيجة أصبح الخليفة "درعا واقيا" للإمبراطورية ضد قرارات وتصرفات القوى الأوروبية المناوئة لها، وبذلك أصبح عامل الخلافة اعتبارا له شأنه في عملية صنع السياسات الخارجية للإمبراطورية العثمانية، إذ جاءت جهود السلطان عبد الحميد الرامية لتوظيف موقف الانقسام الديني- الدنيوي لمصلحة السياسة الخارجية للإمبراطورية، وكان هذا رد السلطان عبد الحميد على محاولة القوى الأوروبية خلق ذلك الارتباك حول دور الخلافة والبابوية[35].

إن ما اعتبره ماسينيون تشجيعا لفكرة السلطة الروحية للخليفة قامت به الدول الأوروبية على حساب مصالحها[36]، لم يكن في حقيقته إلا نوعا من إجراءات احترازية اتخذتها هذه الدول للتخلص من خطر فكرة خلافة إسلامية عالمية تتمتع بسلطة دينية وزمنية معا من جهة، ولتتمكن من تحقيق أغراض سياسية بشكل مؤقت فقط أتاحته ظروف منتصف القرن التاسع عشر من جهة أخرى،

34 Ibidem.

35 Ibid., p. 159.

36 نقلا عن: كوثراني، المرجع السابق، ص42.

وسرعان ما تخلت عنها بتغير تلك الظروف لتنتهج إستراتيجية مغايرة تماما تقوم على دحض فكرة الخلافة العثمانية من أساسها بالطعن في شرعيتها، وذلك حين دخلت المسألة الشرقية مرحلتها الأخيرة مع نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، ودخول الرجل المريض مرحلة احتضار حقيقية.

لقد أدركت الدول الاستعمارية أنه على الرغم من الضعف العام الذي بلغته الدولة العثمانية إلا أن فكرة الخلافة نجحت في إيجاد تكتل إسلامي أمكنه -رغم هشاشته- أن يطيل من عمرها، ويصعب عليها عملية القضاء عليها، وعندئذ فقدت إستراتيجية الدول الأوروبية القائمة على الفصل بين سلطات الخليفة الروحية وسلطاته الدنيوية - السياسية جدواها، ورأت لزاما عليها - حفاظا على مصالحها- أن تنتهج سياسة الطعن في شرعية خلافة الأتراك العثمانيين لتقضي على ذلك التكاتف الإسلامي الذي كان يدعم ما تبقى من إمبراطوريتهم، أو على أقل تقدير التشكيك في صحة خلافتهم والتشويش عليها بإيجاد خلافات منافسة، وفي هذه المرة ستكون فكرة "قرشية الخلافة" هي الأساس الفكري الجديد الذي ستقوم عليها إستراتيجية بريطانيا ومنافستها فرنسا للإجهاز على الرجل المريض واقتسام تركته.